EDITORIAL

بناء الشخصية في رواية "القدس حرة"
نهلة "غصن الزيتون"

د. منتهى طه الحراحشة*

المستخلص

يتناول هذا البحث بناء الشخصية فى رواية " القدس حرة" نهلة "غصن الزيتون" للكاتب الأردني **المهاجر عقيل أبو الشعر** فى ضوء المنهج البنيوي؛ لتكشف عن عالم الرواية ودلالاتها، وتبيّن حركة الشخصيات فى منظورها السردي، ومظهرها الفيزيولوجي، والداخلي النفسي، وتوضّح حدود الواقعي والخيالي فى رسم معالم الشخصيات، وفاعلية العلاقة بين الشخصيات فى تحديد مسار السرد، وتحلّل مستوياته، وتفسّر علاقة التوجس والخوف من الخيانة عند الشخصيات، بتحليل أوضاعها، ويكشف عن علاقة المبدأ والثبات، وحدود الواقعي والخيالي فى رسم معالم الشخصيات. ويخلص البحث إلى أنَّ الكاتب قد أجاد بناء الشخصيات فى الرواية، ومنحها أدواراً تجسد رؤيته فى فترة تاريخية حافلة بالوقائع والأحداث.

المقدمة:

تُعدُّ رواية القدس حرة " نهلة غصن الزيتون" للكاتب الأردني المهاجر **عقيل أبو الشعر** واحدة من الروايات العربية التي ظهرت في فترة زمنية متقدمة، وقد سعى فيها الكاتب لتأكيد موضوعات متمركزة حول الشخصية العربية والأجنبية، **منها:** التمرد، والثورة والبحث عن الذات، والانتماء، والكشف عن الصراع الإيديولوجي، الماثل عياناً في مجتمع الرواية، ورصد مختلف علاقات الشخصيات التي أطرت مجرى الحكي داخلها، بما يتوافق مع رؤيته لواقع المنطقة العربية المشتعل في فترة قمع السلطة التركية للعرب، وهيمنة الانتداب الانجليزي، والاحتلال اليهودي لفلسطين.

وقد فرضت مجريات الأحداث في الرواية نوعية الشخصيات وفلسفتها وسياستها، التي بدورها كشفت عن الواقع العربي المرير تحت وطأة الاحتلال بأنواعه، فبدت الشخصيات رغم مقاومتها قسوة الاستعمار، وسلطته عاجزة عن نيل حريتها، أو استعادة أرضها، لا تملك حتى حرية البقاء أو التصرف فيها تضطهد وتعذب وتسجن وتقتل وتنفى وفق فلسفة استعمارية ظالمة، تمجد القوة والسيطرة؛ لأنَّ هناك هدف استعماري مرسوم تنفذه فى فضاء له وجوده وقيمه وأعرافه وامتداده، فضاء الشخصيات الذي ورثته من السلف، والتي أبدت مواجهة لسلطة الاحتلال القمعية، وسياسته المرفوضة بالرفض والتمرد والثورة. فهل كتب على هذه الشخصيات التي قاومت سلطة الاستعمار القامعة، أن تعذَّب وتشرَّد وتقتل، ولا تملك من أمرها شيئاً؛ لأنها وقفت في وجه المستعمِر لأرضها؟! أو أنها تستسلم لهيمنة السلطة الاستعمارية، مما يجعلها مجرد صور متحركة في يد الاستعمار يتلاعب فيها كما يشاء وفق علاقة سلطوية لا جذور لها في التاريخ؟ المُستعمِر والمُستعَمر.

لقد شكّل الكاتب شخصيات الرواية؛ لتقوم بمختلف الأفعال التي تترابط وتتكامل في سيرورة مجرى الحكي؛ فجسدت صوراً مؤلمة لمجتمعٍ نازفٍ يئن تحت وطأة الاحتلال بأشكاله المختلفة، فكشف من خلال ملفوظاته السردية عن مظهر الشخصيات الفيزيولوجي والنفسي، وعن طبيعة العلاقات بينها متكئاً على تقنيات الوصف والحوار الداخلي والتذكر. فهل استطاع الكاتب أنّ

* أستاذة الأدب الحديث والنقد المساعدة ، جامعة آل البيت، المفرق المملكة الأردنية الهاشمية.

EDITORIAL

يقدم نماذجاً دالةً؟ وما نوع الشخصيات التي رسمها في مجرى الحكي، وما الدلالات الكامنة وراءها، وما خصائصها ودوافعها؟ وما منطقه وآلياته الفنيّة في بنائها؟

لهذا كله، فإن الدراسة تهدف إلى تحليل بناء الشخصية؛ لأهميتها في البناء الحكائي، ولتصوير علاقاتها ومستويات هذه العلاقة، وفاعليتها في تحديد مسار الحكي، وأثر ذلك في تحقيق رغباتها؛ لتشكيل تصور نقديّ واضح عن طبيعتها ورؤيتها في فترة تاريخية دامية، والكشف عن علاقاتها بمجريات الأحداث التاريخية في تلك الفترة، وربطها بالحاضر، ولتفسير طبيعة العلاقة الخفية بينها، وأثرها بحياتها في ضوء المنهج البنيوي الذي حرصْتُ على أن يكون منهج دراستي كوسيلة للوصول إلى الشفرة الخاصة بوعي الكاتب، لذا كان النقد البنيوي معيناً لي في تحليل بناء الشخصية، وبيان الثيمات المحركة، والمركزية فيها. ولذا أؤكد في أنّني بدراسة بناء الشخصيات في الرواية بإزاء وعي، يقدّم تصوراً، ورؤية لا تَنْشُد عطفَ القلوب، والإحساس فحسب، إنما تقوم على سلام الاختلاف، الماثل في وعي الكاتب، وشخصياتها، وأحلامها الواعية، وعلاقاتها.

ولعل من أسباب اختيار الرواية موضوعاً لهذه الدراسة أنَّ شخصياتها ظهرت في فترة تاريخية دامية لها خصوصيّتها في تشكيل تاريخ فلسطين الحديث، وأنَّ لها وظيفة ودلالة خاصة، وترتبط مع بعضها في علاقات خاصة، وتربطها صلات عديدة في الأرض التي تقيم عليها، وتعيش أشد قضايا العصر تجريداً وكأنها قضاياها الفردية المصيرية، فتعكس بمعضلتها معضلة الإنسانية، وتصبح هذه المعضلة زاوية من معضلة الزمان كله. ولأنَّ الرواية حديثة الترجمة تمَّ العثور عليها متأخراً، ولم تحظ بدراسة نقدية جادة، إلا من بعض المقالات الصحفية التي لم تتناول بناء الشخصية في الرواية، بل تناولت الرواية من رؤية تاريخية ومشكلات ترجمة الرواية، مثل مقالة **عليان الجالودي**(2013م)[1]، وعنوانها: صورة التاريخ في "القدس حرة" و"إرادة الله"، وتقتصر على طرح ملاحظات حول شخصية الكاتب، وفكره وموقفه من الاحتلال الإنجليزي، والهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتقديم صورة سلبية للفرق الصوفية، الذين وصفهم بالدرويش، والتي انتشرت في فترة الحكم التركي، وتشويه صورة الحكم العثماني، والصورة المضطربة التى شكَّلها الكاتب لفترة تسلط جماعة الاتحاد والترقي، والتي عانت منها البلاد العربية في أخريات الحكم التركي، وتسليط عدسة الرواية على الشباب المسيحي، ومنحهم دور البطولة، في مقاومتهم لسلطات الانتداب البريطاني دون غيرهم. ومقالة **عدنان كاظم**(2013م)[2]، وعنوانها: براعة اللغة وبساطة الأسلوب، وقد سردت حياة الكاتب الحافلة في الأحداث والمخاطر، وبيّنت أنّ معرفته بعدد من اللغات كان مشكلة كبيرة في ترجمة الروايات، وتعرضت للحديث عن براعته اللغوية، وحنكته وثقافته، وسلاسة أسلوبه في الكتابة في روايتي "إرادة الله" و"القدس حرة". ومقالة **منتهى الحراحشة**(2013م)[3]، وعنوانها: "الانتقام" بيَّن السيرة والرواية، وبيّنت فيها أهمية روايات الكاتب، ورؤيتها، ودورها في التأسيس لنواة الرواية الأردنية في مرحلة متقدمة. ومقالة **هند أبو الشعر**(2013م)[4]. وعنوانها: "الغائب بلا رجعة" وسردت من خلالها حياة الكاتب الحافلة بالأحداث، ومسيرة حياته العلمية والعملية، وأثر ذلك في كتابة رواياته، ومنها روايته، "القدس حرَّة نهلة غصن الزيتون"، التى بيَّنت فيها أنَّ السارد الصحفي العائد من المهجر، الملقب بـ(**حربا الأردني**)، هو **عقيل أبو الشعر**، الذي

([1]) عليان الجالودي: صورة التاريخ في " القدس حرة" و" إرادة الله"، **صحيفة الرأي**، العدد، عمان، الأردن، 12-4-2013م.

([2]) عدنان كاظم: براعة اللغة وبساطة الأسلوب، **صحيفة الرأي**، العدد 15509، عمان، الأردن، 21-4 2013م.

([3]) منتهى الحراحشة: " الانتقام".. بين السيرة والرواية، **صحيفة الرأي**، العدد 15509، عمان، الأردن، 12-4-2013م.

([4]) هند أبو الشعر: الغائب بلا رجعة، **صحيفة الرأي**، العدد 15509، عمان، الأردن،12-4-2013م.

EDITORIAL

سرد على شكل تقارير صحفية، سياسة الانتداب البريطاني القمعية ضد المجتمع العربي في فلسطين، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى الأراضي الفلسطينية، لإقامة وطن بديل ليهود العالم في فلسطين.

عالم الرواية . دلالاتها:

صدرت رواية القدس حرة نهلة "غصن الزيتون" في عام1920م، وهي الرواية الثالثة للكاتب بعد كتابته لرواية "**الفتاة الأرمنية في قصر يلدز**" 1912م، ورواية "**إرادة الله**" التي صدرت في سنة 1917م. وقد كتبت الرواية في اللغة الإسبانية، وترجمت إلى اللغة العربية في عام 2012م بعد العثور عليها. وتتألف الرواية من مائتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط، وتقع في جزأين، يتألف الجزء الأول من تسعة فصول، والجزء الثاني من سبعة فصول.[5]

وتأتي هذه الفصول على شكل تقارير صحفية تحمل عناوين مترابطة، تجسد رؤية حيّة للواقع المأساوي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني من قمع وقتل وطرد وتعذيب تحت وطأة قمع السلطة التركية والاحتلال العسكري البريطاني، والهجرة اليهودية إلى فلسطين. وتسقط القناع عن القوى السياسية التي كان لها الدور الواضح في احتلال فلسطين، وتبحث عن المناضل العربي الذى يؤسس للبنية المجازية القائمة على طرفين محوريين في الرواية وهما الحضور والغياب، أي حاضر (احتلال فلسطين) الذي وقع في الماضي ولا زال مستمراً حتى الآن، والغائب (تحرير فلسطين) الذى لم يحدث، وقد يوشك ألا يحدث بسبب قمع الشعب العربي وضعفه.

وتدور أحداث الرواية في فترة زمنية حرجة تشكل الإطار الزمني لأحداث الرواية، فقد انتهى فيها حكم الملك **فيصل** على المملكة السورية، وكانت منطقة شرقي الأردن غير محددة المعالم، والقدس منذ عام 1917م تحت سلطة الانجليز التي سعت جاهدة لترسيخ الهجرة اليهودية، وإقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين، وتهويد القدس، وتهميش الشخصية العربية، فبدا هذا العمل منحصراً فى تصوير الواقع المرير الذى تعيشه القدس بسبب ممارسات القمع التاريخي ضدها، وغياب الحضور العربي فى السلطة، وهذا يعني أنَّ الرواية كتبت في فترة زمنية متقدمة، وهي متأثرة بالرواية الغربية والذوق السائد آنذاك. يقول السارد الصحفي: "وعلاوة على ذلك، فإنّ الموقف سيتفاقم إذا لم يوضع حد للهجرة اليهودية. لقد وصل مؤخراً 25000 متسللاً من بولونيا وروسيا وأوروبا الوسطى، جميعهم متأثرون بالنظريات البلشفية. يجب أن أذهب اليوم إلى يافا وأعود إلى القدس في نفس اليوم. يبدو أنّ سكان يافا الأصليين، واجهوا بالسلاح نزول أربعة أو خمسة آلاف مهاجراً يهودياً، جمعتهم الحكومة الإنجليزية من جميع أنحاء أوروبا وأفريقيا، من روسيا وبولونيا وترانسيلفانيا ومالطا ومصر، لكي يهوّدوا بهم الأرض المقدسة، ويهيئوا لإقامة "موطن يهودي" في بلد المسيح"[6].

والرواية تسرد حياة أسرة تعيش فى الخليل تتكون من الأب **إبراهيم برهومة**، وابنتيه **سلمى ونهلة** "غصن الزيتون" التي يحمل عنوان الرواية أسمها وأحد فصولها، وولده الكاهن الفنان الذي حمل اسماً كهنوتياً، ولم يتسمَ باسم العائلة خشية على سمعته بسبب هرب شقيقته سلمى إلى مصر مع عشيقها الضابط الإنجليزي المليونير البشع الغبي، يقول السارد: "صلّ يا أخي من أجل

---

(5) تشكل الجزء الأول الذي جاء بعنوان: "جريمة السيد ماركوس"، ويتشكل من تسعة فصول، الفصل الأول بعنوان المنارتان، والثاني أرض الميعاد، والثالث نوري دانييل، والرابع نهلة والحصان الأعمى وغصن الزيتون، والخامس جريمة السيد ماركوس، والسادس قصر الملك، والسابع خبر سار، والثامن في الجسمانية، والتاسع يا للمصيبة التي حلت بي!. وجاء الجزء الثاني بعنوان: "ابن هاسلداما"، ويتشكل من سبعة فصول، الفصل العاشر بعنوان: التأهب والمراقبة، الحادي عشر وهؤلاء الرهبان الكبوتشيون أيضاً، الثاني عشر حب وربيع، الثالث عشر الذي أقام أليعازر، والرابع عشر ليلة رأس السنة، الخامس عشر أنموذج من الأخلاق الصهيونية، والسادس عشر، النجدة أيها الأب ماركوس.

(6) عقيل أبو الشعر: **القدس حرة نهلة " غصن الزيتون "**، ترجمة: عدنان كاظم، ط1، وزارة الثقافة، عمان، الأردن،2012م، ص 43، 44.

EDITORIAL

أنِ ينجي الله من العطش الأزلي، الآثم **إبراهيم برهومة** وابنتيه العاهرتين"[7]. وقد أدى سلوك الابنة سلمى الماجن، وحفلات البغاء بصحبتها الضباط الأتراك والألمان خلال الحرب العالمية العظمى إلى تبذير ثروات والدها التاجر الثري، وفقدان عقله، "**وبرهومة** الآن مجنون مسكين، ضحية الجنون الماجن لابنته، بعد أنّ هزَّت **سلمى** القدس وفلسطين بأسرها، بسلوكها الماجن وحفلات العهر، بصحبة الضباط..."[8].

أما شقيقتها "**نهلة**" فشخصية رقيقة مبهمة، تبدأ حياتها عشيقة للحاكم التركي المستبد، ولكن بعد انتهاء حكمه وحلول الاحتلال الانجليزي للقدس، تتزوج من "**نوري دانييل**"، الشاب المقدسي المناضل العائد من الهجرة والثائر على هجرة الصهاينة وحماتهم الانجليز الى فلسطين لتهويد الأراضي الفلسطينية، وهو بطل الرواية الحقيقي ونقطة ارتكاز النضال العربي في تلك الفترة الزمنية كم تكشفه تقنيتي السرد والحوار، ويقوم بدور مهم في تشكيل الأحداث، وتنمية المواقف ويحمل فكرة الرواية ومعضلتها الرئيسية على كتفيه حتى النهاية، فتنتهي حياته شنقاً من قبل الإنجليز بسبب اتهامهم له تشكيل تنظيمات شبابية لمقاومة الاحتلال، ويتكشف ذلك من خلال رسالة زوجته "**نهلة**" إلى الأب "**ماركو غونثاغا**" الدومينيكاني الذي يعشق القدس فيقيم فيها في فيلا مستأجرة من المقدسي **نوري دانييل** مع ابنته وزوجته وتجمعهم علاقة طيبة **بنوري** وزوجته **نهلة**"[9]. يقول السارد: "وأنَّ البرقية التي وصلت تقول: "النجدة، أيها الوالد **ماركوس!** لقد شنقوا صديقك **نوري** في هاسلداما. الرحمة، أيها الوالد، النجدة!"[10].

وتندرج الرواية تحت عنوان الرواية التاريخية الواقعية، وتؤسس في مرحلة زمنية متقدمة لوعي عربي جديد، وتلقي الأضواء على الواقع العربي المحتل والمضطهد، وتجسِّد الخلل التاريخي الذي أصاب الأمة العربية، وتكشف عن أسبابه، وتعكس صورة سلبية للاحتلال، وتبرز دور المقاومة المسيحية ضد سلطة الانتداب الانجليزي، وتدفق المهاجرين الصهاينة إلى القدس. فخاطبت القارئ من خلال السارد الذي يتولى دفة السرد، وهو الصحفي الذى أرسلته صحيفتان غربيتان لتغطية الأحداث في فلسطين، ويعرفه أصحابه باسم "**حربا الأردن**"، فيسلط عدسة الرواية على تصوير الواقع في مدينة القدس، ورصد سياسة الاحتلال الانجليزي وممارساته القمعية، فيدين سلطة الانتداب، ويرفض التهويد ، تدفق اليهود الغرباء إلى الأراضي الفلسطينية تحت الحماية الانجليزية، يقول في ملفوظ السرد: "إنَّ الخطة الخيالية لإعادة بناء ذلك" الموطن اليهودي"، مخفية، فهي تعني بالضرورة هدم الآلاف من مساكن المسيحيين والمسلمين، المسالمين العزل، وذنبهم الوحيد أنهم منحوا ثقتهم العمياء إلى الحماية البريطانية! خطة خيالية... خطة خيالية كلا فهي حقيقة"[11].

ويكشف الراوي من خلال توظيف تقنية الرسائل عن طبيعة الشخصيات التي تقيم في القدس، ووسائلها في مواجهة الاحتلال والتهويد، فتتداخل الحكايات المتعددة، والمتنوعة التي تنبع من بؤرة واحدة، هى حب القدس والانتماء إليها، ومواجهة العدو الخارجي المتمثل في الاحتلال البريطاني، والهجرة الصهيونية المنظمة إلى فلسطين، وكلها تصب لتصور جوهر الصراع المرير ومداه من خلال الثورة والنضال الذي كان مركزه غور الأردن، وقد شكل حلقة من حلقات الصراع التاريخي الطويل في فلسطين"[12].

([7]) **الرواية**: ص:33.
([8]) **الرواية**: ص: 34.
([9]) **الرواية**: ص:23.
([10]) **نفسها**: ص:234.
([11]) **نفسها**: ص: 44.
([12]) انظر: **الرواية**: ص: 44.

EDITORIAL

ورغم أنَّ فعل الرواية تمَّ في زمن متقدم، وهو زمن الثورات والاحتلال والتناقضات والصراعات التي تعصف في منطقة بلاد الشام، إلا أنها إبداع فني متخيل داخل التاريخ الموضوعي العربي المعاصر، فكانت الرواية "على اختلاف مستوياتها وتوجهاتها ورؤاها وأبنيتها الزمنية، الجمالية والدلالية، الوعي الإبداعي الكاشف عن جوهر مفارقات هذا التاريخ العربي وتناقضاته وصراعاته وأزماته وفواجعه والتباساته، سواء في تضاريسه الحديثة الخارجية أو أعماله الباطنية"[13]، فتحوَّلت الرواية إلى تاريخ متخيل شكله الكاتب معتمداً على مشاهداته وملاحظاته وخياله، وله زمنية متميزة خاصة داخل التاريخ الموضوعي، وبذلك تعامل الكاتب مع التاريخ لتشكيل مادته الروائية، فاستطاع تصوير التاريخ العربي المعاصر وكأنه يؤرخ لتجربتنا المعاصرة؛ لذلك يمكن النظر للرواية " على أنها التاريخ الحديث للبشر، والروائي، هنا، هو بديل المؤرخ، بديله في الزمن، وهو الذي يُعني بدقائق حياة المهمشين ودخائلهم"[14].

الشخصية والرواية:

تعدُّ الشخصية من أهم مكونات العمل الروائي وركيزة أساسية من ركائزه، هى مهمة للروائي؛ "لأنها تظهر حقيقة ملكة الخلق لديه في كل غناها وسعتها"[15]، وهي التي تبث الحوار وهي التي تصطنع المناجاة، وتصف الحدث وتجيزه، وهي التي تنهض بدور إثارة الصراع أو تنشيطه من خلال سلوكها وأهوائها وعواطفها، وهي التي تعمر المكان وتتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديداً وهي التى تتكيف مع التعامل مع هذا الزمن في أهم أطرافه الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل"[16]. والشخصية في الرواية هى المرآة التي تعكس رؤية الكاتب، وتمكَّن مبدعها من "الكشف عن الصلات العديدة بين ملامحها الفردية وبين المسائل الموضوعية العامة، ومن قدرته على جعلها تعيش أشد قضايا العصر تجريداً وكأنها قضاياها الفردية المصيرية"[17]. فهي تمنح القصة بعدها الحكائي، "وتتقاطع مع كافة العناصر الشكلية الأخرى، بما فيها الإحداثيات الزمنية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي"[18]. وهي العنصر الذي يضطلع بمختلف الأفعال التي تترابط وتتكامل في سيرورة مجرى الحكي، لهذا لا نستغرب عندما نجدها محط اهتمام المنشغلين بالأعمال السردية. ويرجع الاهتمام بهذا المكون إلى مركزيته في البناء الحكائي، ولأنها "تؤدي دوراً من الدرجة الأولى، وانطلاقاً من الدرجة الأولى، وانطلاقاً منها تتشكل العناصر الأخرى للحكي"[19]، وانطلاقاً من هذه الأهمية القصوى لمقولة "الشخصية" في العمل الروائي، حاولنا مقاربتها في رواية "القدس حرة" **نهلة** "غصن الزيتون"، لمؤلفها الأردني المهاجر **عقيل أبو الشعر**.

تتعدَّد شخصيات رواية **نهلة** "غصن الزيتون"، وقد خضعت أفعال الشخصيات التي بناها الكاتب" للمنطق الإنساني وللتفسير والتعليل"[20]. حيث يوحي العنوان بالشخصية المحورية "**نهلة**"، بالإضافة إلى أختها الغائبة الحاضرة الموجهة لمسار الحكي، والأخ الذي يحمل اسماً كهنوتياً، ولا يتسمى باسم العائلة، ويدعى "**ديمتريوس**"، فضلاً عن الأب **إبراهيم برهومة**، الذي فقد ماله وعقله بسبب سلوك أبنتيه، الخارج عن إطار واقع المجتمع التقليدي المحافظ، كما تعدُّ شخصية "**نوري دانييل**"

([13]) محمود أمين العالم: **أربعون عام من النقد الموضوعي**، ط1، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، 1994م، ص:21.

([14]) نبيل سليمان: **حوارات وشهادات**، ط1، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 1995، ص: 125.

([15]) نيلي كورمو: فيزيولوجية القصة، **مجلة الآداب**، كانون الثاني، 1954، بيروت، ص: 73.

([16]) عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات الســـرد)، **عالم المعرفة**، 420، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، كانون أول، 1988م، ص: 103 – 104.

([17]) جورج، لوكاش: **دراسات في الواقعية**، ترجمة: نايف بلوز، ط2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972م، ص: 25.

([18]) حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،1990، ص:20.

([19]) *T. Todorov.* ***les catégories du récit littéraire,incommunication*** 8, p:138

([20]) عبد الحسن بدر: **الرؤية والأداء، نجيب محفوظ**، ط1، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م، ص:22.

EDITORIAL

شخصية محورية فى توجيه أحداثها وحمل فكرة الرواية، إنْ لم نقل بدون مبالغة هو بطلها؛ لأنه الخيط الرابط بين عائلة **إبراهيم برهومة**، والصحفي الروائي، فضلاً عن عائلة "**ماركوس**" المكونة من زوجته "**اينيس**"، وابنته "ساونا". والروائي يستمدّ موضوعه من الحياة، فإنه أيضاً يستمد شخصياته الروائية من الواقع، ثم يتجاوز بها حدود الشخصية الواقعية. وهذا ما جعل "**ميشال زرافا**" يفرق بين الاثنتين، إذ اعتبر الشخصية الحكائية علامة فقط على الشخصية الحقيقية[21]. وتشكِّل الشخصية الروائية بحسب **عبدالله رضوان**" بديلاً فنياً للشخصية الواقعية تعكسها، وتتجاوزها على أنها تساعدنا على قراءة، وفهم العام من خلال الخاص"[22].

تبقى هذه مجمل الشخصيات الرئيسية، والموجهة لمجريات الحكي في رواية "**نهلة غصن الزيتون**"، والتي تشكل نموذجاً حيًّاً، وصوراً مؤلمة لمجتمع دامٍ وجاثم تحت سطوة السلطة وهيمنتها، في زمن الخضوع والرعب والاستعمار، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح في هذا المستوى من التحليل، هو كيف تعامل الراوي الصحفي مع هذه الشخصيات في رسم مجريات الحكي داخل هذه الرواية؟ وهل نجح في نسج شخصيات رواياته في عالم الظلم والقمع والتشرد؟

1) **المظهر الفيزيولوجي**:

يعدُّ المظهر الفيزيولوجي من العناصر الأساسية التي أتكأ عليها الكاتب في الكشف عن طبيعة الشخصيات، ويتم الكشف عنها من خلال ملامحها الجسدية: مثل الشكل واللون والطول والوزن والعلامات الفارقة، مما يسعف القارئ في التعرف على الشخصية وفهمها. ولا شكَّ أنَّ هذا المظهر يتضمن دلالات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية. ويكشف عن سلوك الشخصية ومظهرها العام. ويظهر هذا المكون فى عدة ملفوظات سردية ترتبط بالشخصيات الرئيسية التى تؤطر مجرى الحكي، وقد حاول الراوي من خلالها أنْ يعبر عن وضعها السياسي والاجتماعي والأيديولوجي، فقدمها بالتدريج لا دفعة واحدة، وسنحاول أنْ نرصدها من خلال الوقوف عند كل شخصية، وما تتميز به.

- نوري دانييل:

وهو الشخصية المحورية في الرواية، وبطلها الذي يحمل على عاتقه فكرة الرواية ومقولتها الرئيسة. ونموذج المثقف الثوري المناضل، الذي سعى الكتَّاب إلى تشكيله في رواياتهم،" ليدافعوا بشكل غير مباشر عن دورهم في حركة النضال الفلسطيني"[23]. وقد خصص له الراوي الصحفي فصلاً يحمل اسمه، يكشف من خلاله عن أبعاده المادية والنفسية والاجتماعية والأيديولوجية. يقول عنه: "هو شاب طويل وقوي، ذو لحية سوداء مرتبة بعناية....، وعيون واسعة كاليحمور، عذبة ومعبّرة جداً، ذات نظرة عميقة وذكية"[24].

وقفنا عند هذا الملفوظ الذي ينطلق فيه السارد من الكل إلى العام، الذي يحدد فيه شباب الشخصية وقوته، ويشير إلى عمق ذكائه، لينتقل إلى إبراز مقومات جمال هذه الشخصية. التي قدَّمها بأدق تفاصيلها؛ ليعرف القارئ عليها دفعة واحدة، دون أنْ يمنحه فرصة اكتشاف ملامحها وميزاتها.

- نهلة "غصن الزيتون":

([21]) لحمداني، حميد: **بنية النص السردي**، المركز الثقافي العربي، 1991م، بيروت، 50.

([22]) رضوان، عبدالله: **النموذج وقضايا أخرى**، دراسة نقدية للقصة القصيرة في الأردن 1970-1980، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، 1983م، ص47.

([23]) يوسف حطيني، نمذجة الشخصيات في الرواية الفلسطينية، **مجلة الموقف الأدبي**، العدد 346، شباط، 2000م، www.dam.net.

([24]) **الرواية**: ص51.

EDITORIAL

كشف **نوري** عن اسمها بقوله: "نهلة اسم زوجتي، وتعني "غصن الزيتون". وتعد هذه الشخصية محورية في توجيه مسار الأحداث؛ لارتباطها الوثيق بشخصية "**نوري دانييل**" بطل هذه الرواية، والتي يقول عنها السارد في ملفوظ سردي "ها هي تصل نهلة غصن الزيتون... أعترف وبصراحة أنَّ الانطباع الأول الذي ولدته لدي رؤية نهلة... أجمل جميلات بنات بيت المقدس ... كنت أتخيلها مثل كليوباترا، طويلة، متعجرفة، متغطرسة ومستبدة، وبالتحديد، كان الخيال قد شكّل في مخيلتي صورة لنهلة، مشابهة لإحدى نساء لوحة دافيد في متحف اللوفر"اختطاف السابينيات"[25]. شذوذ الخيال! ربما لأنَّ رؤية تلك السابينية شبه عارية، ذات الأفخاذ المثيرة والحركة الزئبقية، التي كانت قد عكرت صفو الكثير من أحلام الشباب، اجتمعت مع الخيوط الغامضة للذكرى المثيرة، لنهلة شبه عارية...." [26].

تبقى هذه صورة رسمها لنا السارد الصحفي، استناداً على ما ذكره له "**نوري دانييل**" لما رآها للمرة الأولى شبه عارية في موقف محزن، ووجه خيم عليه الألم. يعود السارد ويستدرك على هذه الصورة بملفوظ سردي، يحدد من خلاله ملامح الفاتنة "**نهلة**" التي كسرت كل ما جاء من أجله "**نوري دانييل**"، حيث قال في هذا الملفوظ: " كانت نهلة في الحقيقة، امرأة . قليلة الشأن . شقراء ورقيقة كأنها دمية، مضحكة، نعم، كانت أنيقة وذات وجه ملائكي، تحييه عينان كبيرتان كستنائيتان"[27].

لقد ظل "**نوري دانييل**" أسير صورة الفاتنة "نهلة" حيث لم تفارق هذه الأخيرة مخيلته قط. فصهر خياله المنظرين في طيف واحد، وهذا يكشف عن لغز إغراء ووثنية نوري فيها، فقد رسمها وصورها من خلال السرد، وهي تتحرك بتلقائية وعفوية، فكشف عن ملامحها للقارئ، وعلل سبب أغراء الرجال فيها، حيث قال في هذا الملفوظ: " فوجه نهلة أبيض وشفاف مثل وجه عذراء "رافايلّوسانزيو"[28]. تبدو عليه لمحة من الزئبق الوردي، ولعيونها نظرة لطيفة أحياناً، وأحياناً أخرى نظرة ثابتة، عميقة وتثير الحيرة، وبشرتها تكشف عن العناية الطويلة والدقيقة للاستحمام بماء الورد والمساج"[29]. وبذلك كشف عن شخصية نهلة التي تعيش حياة مترفة، وعن وضعها الاجتماعي، والاقتصادي قبل الزواج من **نوري دانيل**، وبعده.

- **السيد ماركوس**:

يقول عنه السارد في ملفوظ سردي مبرزاً من خلاله مظهره الفيزيولوجي: "... ذو قامة رياضية متوسطة، قوي وواسع المنكبين، بفكين شبيهين بفكي أسد، ينتهيان بلحية صغيرة فضية، عينه اليسرى شبه مغلقة، يعلوها حاجب طويل، يوحي وجهه المستدير، بالقوة والمرح، والطاقة الطيبة، فالوالد **ماركوس** يعطي انطباعاً كجدع صداح، مورق من أعلاه، ذو رقبة غليظة"[30].

يرسم السارد عبر هذا الملفوظ ملامح شخصية قوية جديرة بالاهتمام، وكأنه يهيئ القارئ لتتبع مسار هذه الشخصية، التي سيكون لها دور في تغيير مسار الأحداث ومجراها. كما يكشف السارد في ملفوظ أخر عن مظاهر فيزيولوجية للشخصية، فيصفها: "عندما يتجهم وجه السيد **ماركوس** الطبيب بخدوده المستديرة، ولحيته الصغيرة الفضية، في إشارة واضحة للاستغراب"[31]. فيتكشف

([25]) اسم اللوحة، والسابينيات نسبة إلى أمة إيطالية قديمة.
([26]) الرواية: ص:89.
([27]) نفسها: ص:90.
([28]) رافايلّوسانزيو، معماري ورسام إيطالي شهير، عاش في الفترة (1483- 1520).
([29]) نفسها: ص: 90،91.
([30]) الرواية: ص:87-88.
([31]) نفسها: ص:39.

للقارئ طبيعة الشخصية ورود فعلها، اتجاه المواقف والأحداث التي تتعرض لها، فتعبِّر عن رأيها بالرفض لما يحدث في القدس من حركات قتل وتعذيب، وتهويد للأرض الفلسطينية بمساندة قوى الانتداب البريطاني.

- **السيدة إينيس:**

يمر السارد على هذه الشخصية بشكل خاطف، يقول عنها في ملفوظ سردي: "تبدو أكبر من عمرها الفعلي، وتعلو غشاوة حادة من الكآبة وجهها الحنطي، بملامح سيدة دومينيكانية عادية"[32]. لكن هذه الشخصية تلعب دوراً مهماً في إضاءة الشخصيات المحورية، مثل بطل الرواية نوري دانييل، وشخصية نهلة "غصن الزيتون". وتسهم في تطوير الأحداث، والسير فيها حتى النهاية.

- **الفتاة ساونا**:

تأخذ الفتاة مساحة لا بأس بها في مجرى الحكي، بحكم علاقتها بالسارد الصحفي، يقول عنها في ملفوظ سردي: "كانت بدينة كان عمرها تسعة عشر عاماً... ووجهها نظر ترف، وتبدو هى ذاتها، وردة نظرة، بسحنة استوائية واضحة، وللبشرة المخملية لذراعيها ورقبتها التى تبرز من الكورسيه، ذات اللون الأخضر الحجري،

نعومة واستدارة الطفلة الغضة، وشعرها كثيف، ويحبس بين طياته شعاع من الشمس الأنتيلية وأكثر ما كان يربكني فى ساونا، هو قوس شفتيها، وعيناها عينا ساونا الكبيرتان السوداويتان ذواتا الأهداب الطويلة اللوزيتان، والبريئتان العميقتان"[33]. يبدو من هذا الملفوظ السردي أنَّ السارد الصحفي أعطانا صورة براقة لهذه الشخصية التي أعجب فيها من خلال مظهرها الخارجي كما يبدو لأول وهلة، والتي ستصبح فيما بعد مشروعاً للزواج.

كانت هذه معظم الشخصيات التي نالت الحظ الأوفر من قبل السارد الصحفي في الرواية، بالإضافة إلى بعض الشخصيات المؤثرة في مجرى الحكي، خاصة الراهب ديمتريوس الذي يحتل مساحة واسعة من السرد، يقدمه السارد العليم من خلال عدة تقنية الوصف، فيصفه في ملفوظه سردي: "وهو راهب شاب، أشقر، طويل، وسيم، ورسَّام موهوب"[34]. وقد لجأ الكاتب لتوظيفها ليخلق لدى القارئ إحساساً بتنوع الشخصيات واختلاف بيئتها، وليجسد رؤيته للواقع، رؤية قد " ترتبط بالمثالي والثابت والمطلق في مقابل الرؤية التي تؤمن بدينامية الحياة وتطوّرها وتحترم فردية الإنسان"[35].

2) **المظهر الداخلي النفسي**:

وهو من المحاور الأساسية التي تكشف عن طبيعة الشخصية النفسية وما يدور في داخلها من هواجس وأفكار ومشاعر وانفعالات، "ويقصد به اللوحة النفسية للشخصية، أي ما يدور في أعماقها من مشاعر وانفعالات"[36]. ويشمل هذا المظهر أيضاً مزاج الشخصية من انفعال وهدوء، وانطواء أو انبساط. وتتميز الرواية بهذا العنصر الذي يستطيع الكاتب من خلاله النفاذ إلى أعماق نفس الشخصية؛ لكشف ما تخفيه في داخلها، من خلال ما تبوح فيه من مكنونات نفسها، سواء كانت حزن أم قلق أم ثورة،

([32]) **نفسها**، ص:88.
([33]) **الرواية**: ص:88.
([34]) نفسها: ص:46.
([35]) عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870- 1938)، دار المعارف، ط2، د. ت، ص:192. القاهرة.
([36]) شكري الماضي: فنون النثر العربي الحديث، ط1، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، 1996م، ص:33.

EDITORIAL

أم ألم، أم تشاؤم،أم تفاؤل، وكل ذلك لجذب القارئ نحوها، ولتبني جسراً من الثقة معه. ويكشف هذا المحور عن صراعات الشخصية الداخلية والخارجية، من خلال ما تبوح به الشخصية من مكنوناتها.

وقد تعددت أشكاله داخل رواية نهلة "غصن الزيتون"، هذه فظهرت هذه الشخصيات بخصوصيتها وفرادتها، لكن سنحاول رصده من خلال الوصف الأول لكل شخصية محورية، أي من خلال التعريف الأول للشخصية.

- نوري دانييل:

يقف السارد الصحفي عند تلك النضرة العميقة لنوري دانييل والتي تنم عن شخصية ذكية حيث يقول: "وعيون واسعة...عذبة ومعبرة، ذات نظرة عميقة وذكية، وحالما تبادلنا الانطباعات، استطعت معرفة المستوى العالي للثقافة الأوربية، والمعاملة الأنيسة لروح الفنان الشرقية العذبة تلك"[37].

من خلال هذا الملفوظ تتضح معالم هذه الشخصية التي تختزن الكثير والقادرة على تفجير وتغيير مجرى الأحداث، بفعل ما تختزنه نظرتها العميقة والذكية، والتي قد تبوح بما في داخلها، ويبرزه السرد كنموذج مناضل يدعم المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال، وهذا ما سنحاول رصده في تحليلنا لمستوى علائق الشخصيات داخل رواية نهلة "غصن الزيتون".

- نهلة غصن الزيتون:

يصفها "نوري دانييل" – وصف داخلي– سيشكل فيما بعد العقدة لعلاقته بها من خلال ملفوظ سردي حين كانت واقفة في الرمل "... بوضع مأساوي، أصابعها مغمورة في خصل شعرها، باختصار، كان يخيم على وجهها الألم، وتتابع بعيون مفتوحة على مصراعيها"[38]. وكأنها تطلب منا أنِ ننصت إليها، وهي تفضي بمكنوناتها لنا. ثمَّ تتحول هذه الشخصية في مجرى السرد لتصبح زوجة لنوري دانييل المناضل لأجل الأرض الفلسطينية، والتي يرى فيها حبه وأحلامه، فكشف عن حبه الكبير لها بقوله: " البيت كئيباً جداً بغياب الملاك! اليوم (نهلتي) موجودة هنا.

- السيد ماركوس:

"هو نبع بشاشة، وينثر الفرح من حوله،... والطاقة الطيبة،... تبدو عليه السعادة"[39]، تبقى هذه نظرة أولى تختزن الكثير من الفراسة والثقة والطموح والنبوغ والتحدي، حيث ستتحول هذه الشخصية مع بقية العائلة (الزوجة إينيس والبنت ساونا) إلى شخصيات أسهمت بشكل كبير في فتح وتوجيه مسارات السرد الداخلي لرواية نهلة "غصن الزيتون".

- الفتاة ساونا:

تبقى هذه الشخصية ملهمة السارد الصحفي فـ "ساونا هي الغناء، والبهجة والنظارة، وكلمة الرب...، أستطيع أنْ استحضر تعبير نظراتها دون أنْ تصيبني قشعريرة غريبة من الخوف والبهجة العصبية الخجولة فعندما تنظر إليّ أو تكلمني، يفقدني الانفعال الفهم"[40]، تكتسي هذه الشخصية من خلال هذا الملفوظ السردي صبغة السحر والفتنة بالنسبة إلى السارد الصحفي الذي سيغرم بها، ويدخل معها في علاقة عاطفية تعد مشروعاً للزواج.

([37]) **الرواية**: ص: 51-52.
([38]) **نفسها**: ص:66-67.
([39]) **نفسها**: ص:87.
([40]) **الرواية**: **ص: 88. 89**.

EDITORIAL

نكتفي بهذا القدر وننتقل إلى المستوى المهم في تحليل شخصيات هذه الرواية، وهو رصد مختلف العلاقات التي أطرت مجرى الحكي داخلها، وما أنتجته من تشويق لدى القارئ.

3) **فاعلية العلاقة بين الشخصيات في تحديد مسار السرد:**

- **علاقة الرغبة:**

وهي علاقة تجمع بين الذات والموضوع، فالأول كائن راغب، والثاني كائن مرغوب فيه، حيث تعد هذه البنية العمود الفقري الذى أسسه الناقد الفرنسي **(جريماس**Greimas**)** لمفهوم العوامل انطلاقاً من مجموعة من التصورات السابقة من أجل مقاربة الحكي والذي سماه النموذج العاملي، حيث اختزله في مجموعة من الأدوار **تتمثل في:**

المرسل – المرسل إليه . المساعد . المعيق . الذات –الموضوع[41].

تجلت هذه الرغبة في علاقة "نوري دانييل" بطل الرواية ومحورها الرئيسي كما رسمه السارد بشخصية نهلة "غصن الزيتون"، وقد تبلورت هذه الرغبة منذ رؤيته لها وهي شبه عارية وفي وضع مأساوي، وقد شكل هذا الموقف ذلك المنبه الذي أجج رغبة الذات "دانييل" في الوصول إلى الموضوع "نهلة".

وقد تميزت هذه العلاقة **بمستويين مختلفين:**

أ . **المستوى الأول:**

رغبة "نهلة" في الهروب من ذلك الوضع الذي هى فيه لعدم قدرتها عليه، إلى أنْ أشفق عليها "نوري"، ويؤكد هذا الوضع الملفوظ السردي التالي: "أشفقت عليها، فترجلت من على حصاني عنتر، وخلعت عباءتي، معطف كبير من الصوف، وأعطيتها اللجام والمعطف، وابتعدت عنها ماشياً "[42].

ويمكن تمثيل هذا الوضع استناداً إلى الأدوار التي حددها **جريماس** في النموذج العاملي **كالتالي**:

الذات		**الموضوع**
نهلة "غصن الزيتون"	←	الرغبة فى الهروب
المساعد		**المعيق**
إشفاق "نوري دانييل" بواسطة الحصان عنتر		عدم القدرة على المشي

ب . **المستوى الثاني**:

تلخص في رغبة "نوري دانييل" في معرفة صاحبة أو مرتدية طقم السباحة الأزرق واللقاء بها ثانية، الشيء الذي دفعه للبحث عنها، فحاول بداية التوجه إلى الراهب "**ديميتريوس**" إلا أنه لم يظفر بأي مساعدة من هذا الأخير، ما عدا جملة من الأسئلة المحيرة التي ظلت تروج بخاطره بعد التزام الراهب بالصمت.

وقد أصيب "**نوري**" بحالة من الشرود قادته إلى محل بائع التمور الذي توسم فيه إمكانية إخباره عن أسم تلك المرأة ومن تكون؟، لقد كان هذا الرجل البشوش يعتبر هذه المرأة مصدر الفتنة بحكم تبرجها من جهة، ولكونها زوجة أو جارية الحاكم من جهة ثانية،

([41]) *A.J.Greimas, sémantique structurale, recherche de méthode, Larousse 1966, p; 181.*

([42]) **الرواية**: ص: 67.

EDITORIAL

بل الأدهى من ذلك أنه نصحه بالابتعاد عنها، لأنها خيبة أمل مريرة له، ولكل "الشباب المسيحيين والمسلمين واليهود الذين يستهلكون أنفسهم بالرغبات الشبقية لهذه الحورية الشريرة التي تلهب حماسهم"[43].

وقد كان ما سمعه "نوري دانييل" بمثابة خارطة طريق يمكن أن يتبعها فى بحثه عن هذه المرأة، وإنْ كان هذا الطريق يشكل خطراً على حياته. ويمكن تمثيل رغبة "نوري دانييل" فى الوصول إلى المرأة استناداً إلى الأدوار التي حددها جريماس فى النموذج العاملي **كالتالي:**

الذات	**الموضوع**
"نوري دانييل"	صاحبة رداء السباحة الأزرق
المساعد	**المعيق**
الجيش الإنجليزي	الحاكم التركي

كان الحصان في البداية صلة الوصل بين "نوري دانييل" ومعشوقته "نهلة"، ويمكن اعتباره بمثابة المساعد للاثنين، إلى أن ظهر مساعد أكثر قوة وحسماً من الأول، وهو مساعد أتى على حياة الحاكم التركي الذي كان يقف بين الذات "نوري" والموضوع "نهلة"، يوم سقوط يافا في قبضة الجيش الانجليزي، وهذا ما يؤكده "دانييل نوري" عبر الملفوظ التالي: "وقبل ذلك بيوم، كان قد تَّم شنق الحاكم على منارة المسجد مع سبعة أتراك آخرين، كانوا الطغاة السابقين لفلسطين القديمة، وصارت نهلة ملكي..."[44].

بعد أنْ كانت "نهلة غصن الزيتون" فى المستوى الأول هي الذات الراغبة في الهروب من واقعها، تحولت في المستوى الثاني إلى موضوع مرغوب فيه من قبل ذات أخرى هي "نوري دانييل"، وأمام تشابك علاقات الرغبة في هذا المستوى تصبح رغبة الذات والموضوع في تواصل دائم بعدما أصبحت "نهلة" زوجة ومحبوبة "نوري" الأبدية.

من هذا المنطلق يمكن القول أنَّ علاقة الذات بالموضوع تقوم على الرغبة، وبالتالي فإنَّ الرغبة عماد كل فعل إنساني مهما كانت الأساليب والطرق المتبعة في تحقيقها.

- **علاقة التوجس والخوف من الخيانة**:

تأخذ هذه العلاقة طابع التشويق والإثارة من ذات القارئ الحاذق، الذي يستهويه فعل القراءة، ويطلب المزيد بحثاً عن الخروج من الظلمة والعتمة والضبابية. وقد كانت شخصية نهلة "غصن الزيتون" محور هذه العلاقة والتي تشكلت خيوطها أولاً مع بداية بحث "نوري دانييل" عن صاحبة الرداء الأزرق، خاصة بعد ذلك الموقف غير المفهوم للراهب "ديميتريوس"، إضافة إلى ما سمعه من بائع التمور الذي أكد بأنه ليس الأول، ولن يكون آخر من يضل طريقه وراء هذه المرأة، فكلُّ الشبان المسيحيين والمسلمين واليهود سلبت عقولهم، واستهلكت أنفسهم الرغبات الشبقية لهذه الحورية الشريرة، وقد كان موقف بائع التمور واضحاً وصريحاً حين نصحه بالكف عن البحث عنها؛ لأنه يعتبرها وباءاً على الحريم النزيهات في المدينة، لتبرجها، وعدم تحجبها، وخروجها عن المألوف، خروجها من منظومة العادات والتقاليد السائدة فى المنطقة.

([43]) **الرواية**: ص:73.

([44]) **الرواية**: ص:82.

EDITORIAL

لقد استطاع "نوري دانييل" أن يجد جواباً عن موقف الراهب من خلال ما أسر له به بائع التمور"...عليك أن تفسر حالة غضب الشابة المسيحية وعلاقتها غير المبررة مع الراهب الرسام، الذي اعترفت إليه"[45].

وتبقى هذه الصورة الأولى لهذه الفاتنة التي جعلت "دانييل" يزيغ عن طريق التجارة، ويتحول إلى ذلك العاشق الولهان، لكن ماذا عن بقية الحكاية في علاقتها بموضوع التوجس والخيانة؟

لقد شكَّلت علاقة التأهب والمراقبة والخوف من الخيانة مساحة مهمة في علاقة "**ماركوس**" بالسارد الصحفي، في مقابل علاقة "نوري دانييل" بزوجته نهلة "غصن الزيتون". فقد كان ماركوس شديد الخوف على "دانييل"؛ لأنه كان يشك بعلاقة خيانة تجمع بين الراهب "**ديميتريوس**" بنهلة. يتأكد هذا الشك من خلال الملفوظ **التالي:**

"إذاً أقول لك بأنَّ شرف صديقنا نوري في خطر كبير، شرفه وسعادته، وسعادة أهله.

كيف ذلك؟ إنَّ الراهب **ديميتريوس** هو عشيق نهلة.

الجميع يعرف ذلك ماعداك أنت.

...يجب أنْ نراقب وننقذ سعادته، إنَّ الراهب **ديميتريوس** يحضّر لمفاجأة...، ولاشك بأنه جاء ليدبر الهروب مع عشيقته...، إنَّ صديقنا يحب زوجته بجنون، وسوف يموت من الحسرة، إنَّ لدى نوري ثقة مطلقة في زوجته"[46].

يتأكد من هذا الملفوظ الحب الكبير الذي يكنه "ماركوس" لصديقه "نوري دانييل"، وكذا حب هذا الأخير لمعشوقته وزوجته "نهلة"، في مقابل المسؤولية الملقاة على السارد الصحفي "**حربا الأردني**" لمراقبة نهلة "غصن الزيتون" في علاقتها مع الراهب "**ديميتريوس**".

ينتهي هذا التوجس والخوف من بعد التأكد من براءة نهلة من كل خيانة، أو علاقة غير مبررة مع الراهب، وذلك من خلال الملفوظ التالي: "انثنيت على ركبتي وقبلت، بعاطفة وامتنان، الخاتم الرسولي لسعادته، وخرجت من البطريركية، مرتبكاً بسبب الكشف المحير، ولكني كنت مسروراً، وقد ظهر خيال نهلة والراهب "ديميتريوس" طاهرين معظمين أمام عيني المليئتين بعطف وإعجاب"[47].

ينهي هذا الملفوظ التشويش الذي طبع علاقة التوجس والخوف، فتنزاح الغمة وتتأكد براءة "نهلة"، إذ أنَّ العلاقة التي تجمعها بالراهب علاقة أخوة فحسب، و"نوري دانييل" على علم بهذه العلاقة، إلا أنِّ الإفصاح عنها يهدد سمعة الراهب، جراء أفعال أختها العاهرة "سلمى" التي تكاد تغيب عن مجريات الحكي بشكل مباشر، إلى أنِّ تظهر في نهاية الحكي من أجل التأكيد على وضعها الأخلاقي الذي طالما تتكر له أخوها الراهب "**ديميتريوس**"،الذي صدم عند رؤيتها " لقد وصلت سلمى، الرائعة سلمى، اليوم من القاهرة، كنت أنا والراهب **ديميتريوس** لوحدنا نتحدث في صالون فيلا نوري...، وتمسك بذراع ضابط انجليزي...، كان الراهب **ديميتريوس** محمر الوجه، كلون ملابسه، وكان يبدو مصدوماً، وينظر إلى عشيق شقيقته بعين الغضب"[48].

يفصح هذا الملفوظ عن علاقتين متناقضتين، هما علاقة الوفاء والعفة والإخلاص الذي تكنه "نهلة" لزوجها "نوري دانييل"، في مقابل علاقة عدم العفة والعهر الذي تعيشه شقيقتها "سلمى" والتي ذاعت سمعتها في أرجاء القدس كلها، بعد أن رحلت مع

([45]) **نفسها**: ص: 71.
([46]) **الرواية**: ص: 153-154.
([47]) نفسها: ص: 195.
([48]) نفسها: ص: 197.

EDITORIAL

ضابط انجليزي غني وغبي وجشع، وأقامت معه في فيلا فخمة في إحدى ضواحي القاهرة. وهذا يجسد التناقض بين أفراد الأسرة الواحدة.

- **علاقة المبدأ والثبات**:

تشكَّل هذه العلاقة جوهر العمل الروائي، وهي علاقة يمكن رصدها من خلال ثلاث **شخصيات:**

- نوري دانييل: الشخصية المناضلة.
- السيد ماركوس: الرجل القوي والمبدئي.
- السارد الصحفي: الكلمة الحرة.

وسنحاول التعرف على كل شخصية على حدة، للكشف عن الوظيفة التي رسمها الكاتب لها لتجسد رؤيته.

"**نوري دانييل**":

حيث عاشت هذه الشخصية التي جسدت دور البطل في الرواية، وضعين مختلفين في رواية نهلة "غصن الزيتون"، **هما:**

- **الوضع الأول:**

تجلَّى في إصراره على الظفر بمحبوبته "نهلة"، والزواج بها، رغم وجود المعيقات، مثل عيشها عند الحاكم التركي كجارية، والسلوك الماجن لشقيقتها سلمى"[49].

- **الوضع الثاني:**

تجلَّى في المقاومة العنيدة، ضد جيوش الصهاينة، وحماتهم من سلطة الانتداب، وفي مواقفه الجريئة خاصة في رفضه ترحيل الوالد "ماركوس" من فلسطين، إضافة إلى انتدابه وسيطاً بين قوات الاحتلال والثوار الوطنيين، بهدف إرساء السلام في البلاد، إلى أنْ لقي حتفه ومات شنقاً، يروي السارد الصحفي بعد ترحيله من القدس بالقوة من قبل فصيل من الجنود الصهاينة، فيقول: "أبلغنا الرقيب المجنون بأنَّ لدينا ثلاثاً وثلاثين دقيقة من الوقت لنحزم حقائبنا لنلحق للرحيل من جبل الزيتون في القدس إلى أوروبا، وعندما وصلنا إلى باب دمشق قرب المحطة، استطعت رؤية الورقة الكبيرة المطبوعة، والملصقة على الحائط، وقراءة ما كانت تقرأه الحشود وتعلق عليه؛ يا للرعب!..

"بأمر من سيادة القائد الأعلى لقوات الاحتلال الصهيونية في فلسطين، سوف يتم هذا الصباح، الساعة التاسعة والنصف، في مقبرة هاسلداما، شنق المسيحي نوري دانييل، وستبقى جثة المعدوم ثلاث أيام وثلاثة ليال، كعبرة للعابثين بالسلام العام، وكنموذج للأخلاق" آرون جيروبوم ماكلين، الحاكم العسكري للقدس"[50].

فنهاية الشخصية بموتها شنقاً رغم تاريخها الحافل بالجهاد والنضال، لا تعني نهاية أحداث الرواية فقط، بل تجسد أيضاً " اللمسة الأخيرة التي تُكسب الكشف عن الشخصية كماله ونهايته"[51]. وتخدم رؤية الرواية التي يحملها البطل من بداية الرواية

([49]) انظر: الرواية: ص: 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 82.

([50]) **الرواية**: ص: 231، 232.

([51]) إودين موير: **بناء الرواية**، ترجمة إبراهيم الصيرفي، مراجعة: عبد القادر القط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر والدار المصرية للترجمة، مصر، د.ت، ص:55.

حتى نهايتها، وبنهاية الرواية تتكشف رؤيتها التي صنع الكاتب الشخصية من أجل تجسيدها، فتتضافر نهاية البطل مع نهاية الأحداث لتحقيق رؤية الرواية.

- **السيد ماركوس**:

أو الوالد ماركوس كما كانوا يسمونه، كان يعشق القدس ويقيم فيها مع زوجته **اينيس** وابنته **ساونا** في فيلا مستأجرة من الشاب المقدسي نوري دانييل في جبل الزيتون"[52]، وترتبط أسرته في علاقات طيبة مع نوري وزوجته نهلة غصن الزيتون، وكان كثير الحب " لنوري دانييل" لذا كان يخاف عليه من بطش الصهاينة، ولم يكن يوماً موافقاً على انضمامه للثوار، إلا أنه في الوقت نفسه كان يكره المستعمر، وظل وفياً لمبادئه، فقد ظل حتى وهو في سفينة الترحيل من فلسطين يسأل عن أخبار "**نهلة**" والراهب "**ديميتريوس**"، بل وراسلهم كذلك، وهو الذي كان يفضل السجن على أنْ يخرج مكرهاً من أرض فلسطين التي أحبها وعاش فيها رغبة وحباً لها"[(53)].

وتكشف حركة السرد أنَّ الشخصية لم تحقق طموحاتها؛ لأنَّها لم تمنح الزمن الكافي لنقل رسالتها، أو الحفاظ على روح صديقها نوري دانييل، أو تحقيق حلمها في البقاء في الأرض المقدسة "القدس" من خلال النضال، فتصدم بالواقع المرير الذي فرضه الاحتلال الصهيوني عليها، بنفيها القسري من جبل الزيتون في القدس في زمنٍ قياسي إلى أوروبا بالسفينة "لوتوس" المبعوثة من قبل الهيئات البريطانية، إلا أنَّ هذه الشخصية لم تعبِّر عن الواقع وتتحسس أوجاعه بشكل مباشر، فتندمج فيه من خلال مسار ثورته على الواقع، رغم أنِّ دورها ينتهي بالترحيل القسري، فتجسد بذلك ظلم الاستعمار، وسلب الأرض من أهلها، وقد وظَّف الكاتب هذه النهاية المأساوية لخدمة رؤية الرواية وفلسفتها.

السارد الصحفي:

شكَّلت هذه الشخصية الكلمة الحرة، ولسان القموعين، والذي يتولى مهمة السرد، وتقديم الأحداث، ويكشف عن خبايا الشخصيات ومكنوناتها، ويعلل أسباب وجودها، فيقدم صورة واضحة للقارئ عنها، وهو مراسل صحفي لصحيفتين غربيتين، جاء لتغطية الأحداث في فلسطين، ويعرفه أصحابه **(حربا الأردني)**، ملامحه شرقية، لكنه يدخل القدس بجنسيته الأجنبية، ويجسد رؤيته للواقع المرير في فلسطين، من خلال تقاريره الصحفية التي يدين فيها سلطة الانتداب، والهجرة اليهودية، وتهويد الأراضي الفلسطينية، يقول في ملفوظ سردي:" كانت الساعة العاشرة ونصف صباحاً وكان "القوَّاس"[(54)] يتقدم أمامي في ممر البطريركية اللاتينية الواسع، يحمل، في طبق، بطاقتي التي تحمل اسمي ولقب مراسل في الأسفل، بحروف مطبوعة، عجباً! النبالة تفرض نفسها"[(55)]، يتعرف على نوري دانييل وزوجته نهلة، وأخيها الراهب الناصري، والسيد ماركوس وعائلته، وتربطه بهم صدقات حميمة، يرحب نوري دانييل مرحباً بالصحفي، بعد أنْ حلَّ ضيفاً عليه في بيته، فيقول في ملفوظه السردي: " فأنت مرحب بك

([52]) انظر: الرواية: ص: 37، 38، 39.
([53]) أنظر: الرواية: ص: 231،233.
([54]) رئيس تشريفات البطريركية. أنظر: **الرواية**:ص: 234.
([55]) **الرواية**: ص: 189.

مرتين، يا حربا الأردني"[56]. ومن ثمَّ يرحل معهم إلى أوربا قسراً من قبل قوات الاحتلال"[57]. لكن نهاية الرواية شكَّلت تلك الخيبة، وذلك التكسير على مستوى تسلسل الأحداث، والموقع الذي كان يأخذه السارد في كل حدث، وهو يحس بالندم اتجاه صديقه ماركوس، وخذلانه لنوري المشنوق، وعدم قدرته الإفصاح عن فحوى الرسالة التي أرسلتها "نهلة" إلى "ماركوس"، والتي تحتوي خبر شنق نوري دانييل. ولعل ما يؤكد إحساسه بالندم هو هذا الملفوظ "شعرت بحضور السيد ماركوس، بشوكة ندم حادة؟ بأي حق اعترضت أنا صرخت النجدة المؤلمة تلك؟ هل كان من الممكن لي أنِ أخنق ذلك النداء المؤلم، من الروح إلى الروح، دون أنْ أجرح الورع المقدس للشعور الإنساني"[58]. وهو بذلك يرمز إلى الوعي الجديد الذي بدأ ينمو اتجاه المستعمِر في المرحلة التي تقع فيها أحداث الرواية.

تبقى هذه اللحظة على مستوى الخطاب السردي في رواية نهلة "غصن الزيتون" قمة الخرق على مستوى البناء الروائي في علاقته بالشخصيات الأساس التي تحرك مجرى الحكي، حيث شكلت للقارئ تلك الصدمة أو المفاجأة، وهو يحاول يبني أفق توقعاته، نتيجة الوضع الذي آل إليه "نوري دانييل" وهو يواجه مصيره الموت شنقاً من جهة، والإكراه الذي لقيه الوالد "ماركوس" المرحل من الأرض الفلسطينية من جهة أخرى، بالإضافة إلى قدرة الصحفي السارد على إخفاء فحوى الرسالة التي بعثت بها "نهلة" إليهما. يقول السارد الصحفي في ملفوظه: " نعم أيها الوالد المسكين، نعم لقد وصل جواب نهلة، وأنا أحتفظ به هنا مخبأ في جيبي، الجواب المؤلم، لقد خبأته لأني أخاف أنْ يسبب لك الخبر الرهيب ألماً كبيراً جداً، وأخاف على صحتك، إنك تحب نوري دانييل مثل ابنك وأكثر حتى، وصلت البرقية، لقد شنقوا نوري دانييل..."[59].

4) حدود الواقعي والخيالي في رسم معالم الشخصيات:

يبدو الحديث عن هذا العنصر مؤرقاً نوعاً ما لصعوبة الفصل بين الواقعي والخيالي خاصة في عالم الرواية؛ لأنَّ الرواية قائمة أصلاً على المزج بين الواقع والمتخيل، فالكاتب يعيش الواقع ويصوره في عدسة الرواية، فيجري عليه تغييرات وتعديلات، ويضفي عليه أبعاداً فنياً وخيالياً، فيحوله إلى عمل خيالي مطابق للواقع، لكنه ليس الواقع نفسه. ورغم إقرار السارد الصحفي بواقعية ما يرويه، وذلك عبر هذا الملفوظ الذي يقول: "عندما أتصفح ثانية صفحات هذه الرسالة الحميمية، حيث تود أنْ تستريح روحي المتعبة من المهام الصحفية السياسية الجافة، أتساءل، وأنا أفكر في الإلهام الدرامي لهذا الصباح...، لماذا لا أفكر في تأليف رواية دسيسة ومغامرات، من الملاحظات والتقارير الكثيرة هذه"[60].

يوحي هذا الملفوظ بواقعية الرواية بشخوصها وفضاءاتها وأحداثها، لكنها في العمق تبقى عملاً تخيلياً بامتياز، فكيف لا والرواية التي تحمل طابع السيرة الذاتية يشك في واقعيتها أحياناً. وعلى الرغم من دخول الشخصيات والزمن والأماكن والإشارات التاريخية في سياق العمل الروائي محملاً بدلالات تاريخية معينة، فإنَّ السارد يتدخل لتحويرها، أو لتعديلها أو لتغيرها وفق رؤيته من عمله الإبداعي، وقد يبقي على هذه الدلالات كما هي، لكن حضورها يستدعي مجالات فكرية ونفسية تدعم دلالة هذا الإبداع الروائي الذي يتوخى الإبحار في عالم الخيال، مخترقاً الواقع بكل تجلياته، إما عن طريق تغيير أسماء الشخوص، أو نسج علاقات جديدة

([56]) **نفسها**: ص:61.
([57]) انظر: **الرواية**: ص: 231، 232، 233، 234.
([58]) **الرواية**:ص: 234.
([59]) **نفسها**: ص: 234.
([60]) **نفسها**: ص: 187-188.

EDITORIAL

بينها في إطار الخروج من ما هو كائن إلى الممكن؛ لأن الكتابة مغامرة وسحر بالدرجة الأولى، لذلك يبقى التداخل بين الواقعي والخيالي في رواية نهلة "غصن الزيتون" وارداً بقوة؛ لأنّ الكاتب وهو يكتب يستحضر مجموعة من الأحداث التي تتصل بالذات، لابدَّ أن يسقط عليها أحلامه، وأمانيه وأفكاره ورؤاه التي قد لا تنتهي.

الخاتمة:

ويمكن القول من كلّ ما سبق، أنّ الدراسة في تحليلها بناء الشخصيات في رواية "القدس حرَّة نهلة "غصن الزيتون، توصَّلت إلى أنَّ الشخصيات شكَّلت المكون الروائي، وكشفت عن رؤية الكاتب، بل واحتلت موقع الكاتب العالم بخفايا شخصيات حكايته، الذي حاول من خلال السارد الصحفي في ملفوظات السرد إبراز خصوصية شخصيات، تتأسس على التمرد، ورفض المفروض، والثورة على الظلم بأنواعه، وإتيانها على موضوعات، هي انطلاقة في مواجهة الإرث الاستعماري وظلمه المجموع، دونما إعادة للنظر والتفكير، وتقدير وبال تلك الرؤية، التي أراد الكاتب فيها إظهار مدى قمع الذات العربية على المستوى المحلي، والعالمي، فحوَّلها إلى شخصيات تحترق، في ظل الفوضى التي ولَّدها الاحتلال، وسياسته القمعية، فوق الأرض العربية الفلسطينية الممتدة.

ويعود اهتمام الكاتب في بناء شخصياته؛ لأهميتها في البناء الحكائي، فكشفت الملفوظات السردية عن وعلاقاتها، وفاعليتها في تحديد مسار السرد، مثل: علاقة الرغبة بين نوري دانييل، ونهلة غصن الزيتون، والتي تجمع بين الذات والموضوع، وأدوارها ومستوياتها، وعلاقة الخوف من الخيانة، والتي تتمثل في علاقة "ماركوس" بالسارد الصحفي، في مقابل علاقة "نوري دانييل" بزوجته نهلة "غصن الزيتون"، والعلاقة التي تجمع بين الراهب "**ديميتريوس**" **بنهلة**. وعلاقة الوفاء التي حصلت بين نوري دانييل وزوجته نهلة، والسيد ماركوس وعائلته والصحفي الأردني حربا وعلاقة المبدأ والثبات عند نوري دانييل، والسيد ماركوس، والصحفي السارد، وقضاياها الحكائية داخل النص، وإصرارها على تحقيق رغباتها التي تتجسد في الدفاع عن فلسطين ضد جيوش الصهاينة، وحماتهم من سلطة الانتداب، وتحقيق أهدافها الخاصة، لتنتهي هذه الشخصيات بالموت شنقاً، كما حدث لنوري دانييل، والترحيل قسراً للصحفي، والسيد ماركوس وعائلته، فشكَّلت قمَّة الخرق على مستوى بنية الرواية، وكسر أفق توقع القارئ، للنتيجة التي انتهت إليها الشخصيات.

ويلاحظ القارئ من ملفوظ الحكي في الرواية أنّ الكاتب قد أجاد رسم شخصيات انتقاها من مجتمع واقعي هيمنت فيه قوى الاحتلال على فلسطين، وشجعت الهجرة الصهيونية إلى القدس؛ لأجل تهويدها، وأجرى عليها تعديلات وتحويرات ولمسات فنيَّة. فقدَّم نماذجاً متنوعة، ودالة لفئات تنتمي إلى مجتمع لا يملك حرية التعبير أو السيادة في المنطقة، وقد هيمن الكاتب على مجريات الحكي من خلال ملفوظات دالة حاكها الراوي بأسلوب سردي تقريري. ولهذا كله فإنّ الكاتب عقيل أبو الشعر جعل من الشخصيات الثائرة، والرافضة للاحتلال على مستوى الواقع، ممكنات مكتوبة روائياً، بعد أن كانت تسرد مشافهة ؛ في محاولة التأصيل لرواية الحرب العربية، كي تكتسب خصوصية على الصعيد العالمي. وخلاصة القول يبقى أنَّ نقر بأنَّ السرد يلامس كل مجالات الحياة، من مقالات صحفية وكتب التاريخ والأدب التخيلي وغيرها.

EDITORIAL

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية:

1. أبو الشعر، عقيل: **القدس حرة نهلة " غصن الزيتون "**، ترجمة: عدنان كاظم، ط1، وزارة الثقافة،عمان، الأردن، 2012م.
2. بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،.1990
3. بدر، عبد الحسن: الرؤية والأداء، نجيب محفوظ، ط1، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر 1971م.
4. بدر، عبد المحسن طه: **تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر** (1870- 1938)، دار المعارف ط2، د. ت، القاهرة.
5. رضوان، عبدالله: **النموذج وقضايا أخرى**، دراسة نقدية للقصة القصيرة في الأردن 1970–1980، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، 1983م.
6. سليمان، نبيل: **حوارات وشهادات**، ط1، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 1995.
7. العالم، محمود أمين: **أربعون عام من النقد الموضوعي**، ط1، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، 1994م.
8. الحمداني، حميد: **بنية النص السردي**، المركز الثقافي العربي،1991م، بيروت.
9. لوكاش، جورج: **دراسات فى الواقعية**، ترجمة: نايف بلوز، ط2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972م.
10. الماضي، شكري: **فنون النثر العربي الحديث**، ط1، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، 1996م.
11. مرتاض، عبد الملك: **في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)**، عالم المعرفة، 420، **المجلس الوطني** للثقافة والفنون والآداب، الكويت، كانون أول، 1988م.
12. موير، إودين: **بناء الرواية**، ترجمة: إبراهيم الصيرفي، مراجعة: عبد القادر القط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر والدار المصرية للترجمة، مصر، د.ت.

ثانياً: الكتب الأجنبية:

1. *T.Todorov**. les catégories du récit littéraire,incommunication.***
2. *A.J.Greimas, **sémantique structurale, recherche de méthode,** Larousse, 1966.*

ثالثاً: الدوريات العربية:

1. الحراحشة، منتهى: "**الانتقام**".. بين السيرة والرواية، صحيفة الرأي، العدد 15509، عمان، الأردن، 12–4–2013م،
2. كاظم، عدنان: **براعة اللغة وبساطة الأسلوب**، صحيفة الرأي، العدد 15509، عمان، الأردن، 21–4–2013م.
3. أبو الشعر، هند: **الغائب بل رجعة**، صحيفة الرأي، العدد 15509، عمان الأردن، 12–4–2013م،
4. الجالودي، عليان: **صورة التاريخ في "القدس حرة" و" إرادة الله"**، صحيفة الرأي، العدد، عمان، الأردن، 12–4–2013م،
5. كورمو، نيلي: **فيزيولوجية القصة**، مجلة الآداب، كانون الثاني، 1954، بيروت،
6. حطيني، يوسف، **نمذجة الشخصيات في الرواية الفلسطينية**، مجلة الموقف الأدبي، العدد 346، شباط، 2000م، www.dam.net.